عن هذا القصور بالتفرُّغ لدراسة الوسائل التي تؤدي بهم إلى صنعة الكلام الجيد من ناحية ، وإلى الحُكْم عليه من ناحية أخرى .

وتتبعوا نماذج الشعر والخطابة في صورتها العربية الخالصة ، وفي أشكالها التعبيرية المختلفة ، وعمد بعضهم إلى استخلاص جملة صالحة من المقاييس الفنية ليضعوها أمام ناشئتهم ليحتذوا حذوها . ومن مكرور القول أن نعيد هنا الحديث عن أثر صحيفة بشر بن المعتمر في تاريخ البلاغة والنقد . ومن هنا ساعد كل ذلك على تداخل الجانبين : النقد والبلاغة ، حيث كان الأول وسيلتهم ، والثاني غايتهم .

ويلعب المتكلِّمون دوراً أساسيا في هذا المجال أيضًا ، وعلى وجه الخصوص المعتزِلَة ، حيث كانت الحاجة ماسة إلى الوقوف ضد النزعات التي بدأت تنبئ عن صراعات فكرية أشاعتها تلك العناصر التي راحت تشكِّك في كثير من القيم الدينية عن طريق الجدل ، مستعينة بما تُرْجم من آثار منطقية وفلسفية ، وأسهم المتكلمون بشكل جاد في الوقوف أمام تلك المطاعن ، للذود عن كتاب الله ودينه بسلاح هؤلاء الطاعنين نفسه ، أي بالجدل ومُقارَعَة الحُجَج وقوة البيان . واستدعى الأمر مزيدَ اهتمام بوسائل البيان وطرقه المختلِفة ، مع الاستعانة بخواص جودة القول و وضوحه ، وكيفية تفتق الدلالة من صياغته ؛ مما أدى إلى امتزاج الدراسة اللُّغوية بالدراسة البلاغية ، وأصبح النحو منطقة تحرُّك خصب لقياس الجودة والصحة ، وهما أمران يرتبطان بالنقد والبلاغة معًا .

وهكذا انتهت المساراتُ المختلفة إلى عملية توحُّد ، مفيدة من الحقائق العلمية في مباحث اللغة والنحو والمنطق ، ومفيدة من مباحث الجمال في